المزيديّون ودورهم في تأسيس مدينة الحِلَّة

The Role of Al-Mazidion in Establishing Hillah City

أ. د. يحيى كاظم المعموري

جامعة بابل/

Prof. Dr. Yahya Kadhim Al-Ma'moori

University of Babylon/

ملخَّص البحث

يرجع المزيديون في نسبهم إلى قبيلة بني أسد العربية، وكانوا يتخذون من مناطق ميسان (العمارة) موطنًا لهم. ونتيجة لخلافات المزيديين مع أبناء عمومتهم بني ناشر، ونتيجة لوضع حدٍّ لسفك الدماء التي أريقت بين أبناء العم، قرّر زعيم بني أسد أبو الحسن علي الانتقال إلى النيل القريبة من مدينة بابل الأثرية لتكون عاصمة له، والتي حكمها من بعده ابنه دبيس، ثمّ منصور أبو كامل، لينقل الحكم إلى صدقة بن منصور.

ونتيجة للخلافات التي حدثت بين صدقة والسلاجقة إلى درجة أنّ الحرب أصبحت وشيكة بين الطرفين، لذا فكّر في اتّخاذ عاصمة جديدة تكون أكثر حصانة، فاختار منطقة الجامعين التي تقع غرب الفرات ليكون النهر عائقًا أمام تقدّم قوات السلاجقة. وفعلًا أسّس مدينة الحلّة سنة ٤٩٥هـ، والتي أصبحت عاصمة مزدهرة تضمّ أغلب مناطق العراق بعد أن نظّمها وقوّى جيشها، بحيث أصبح صدقة يخشاه السلطان السلجوقي، ويستنجد به الخليفة العباسي وقت الأزمات، لاسيما عندما استعان به حينما حدثت الاضطرابات في بغداد بين السنّة و الشيعة، فدخل جيش صدقة بغداد وهدَّأ الأمور، وأنصف المظلوم، وعاقب المعتدي، الأمر الذي لقب بـ(حامي الشيعة)، ثمّ أصبح الرجل الثاني بعد الخليفة الذي أطلق عليه لقب (ملك العرب).

Abstract

This study explains the identity of Almazidion and how they came and resided first in Al-Nile town near the Ancient city of Babylon then moved to an area on the west of Euphrates and established the city now called Hillah in 495H. At that time, Hillah had a strong army led by Sadaqa bin Mansour Almazidi who defended it against the attempts of Seljuks to invade it and he became next to the Abbasid Caliph in his power.

المزيديون ودورهم في تأسيس مدينة الحلَّة

التسمية والموقع

قبل الخوض في تفاصيل تاريخ مدينة الحلّة وتأسيسها وأهم الأحداث التي جرت فيها، لا بدّ من إلقاء نظرة سريعة عن معنى كلمة (حلّة) وموقعها. فالحِلَّة بكسر الحاء وتشديد اللام تعني القوم النزول، وتعني أيضًا شجرة شائكة صغيرة أصغر من العوسج وأصغر من القتادة، تسمّيها أهل البادية (الشبرق)، إذا أكلتها الأبل زاد لبنها وتدفّق[١].

وهي علم لعدّة أماكن نحو حلّة بني عقيل في ميسان (العمارة) بين واسط (الكوت) والبصرة، وحلّة بني دبيس بن عفيف الأسدي قرب الحويزة، أي المنطقة الواقعة بين الكوفة والبصرة والأحواز[٢]، وحلّة بني مراق قرية كبيرة لقوم من التركمان بالقرب من الموصل، والحلّة أيضًا قرية مشهورة في أطراف الدجيل شمالي بغداد[٣]، وحلّة بني مزيد، أو الحلّة السيفيّة نسبة إلى مؤسّسها صدقة بن دبيس الملقّب (سيف الدولة)، والتي تبعد عن بغداد بحوالي ١٠٠ كم، وعن مدينة النجف الأشرف بحدود ٦٠ كم، وعن مدينة كربلاء ٤٠ كم تقريبًا، كما أنّها تسمّى بالحلّة الفيحاء، لطيب هوائها وكثرة حدائقها[٤].

وجديرٌ بالذكر أنّ مدينة الحلّة تبعد عن بابل التاريخية مسافة بضع كيلومترات، ومدينة بابل كانت أعظم مدينة في التاريخ القديم، وهي عاصمة لدول عظمى في زمانها، منها الدولة الآمورية والدولة الكلدية، واللتان تركتا إرثًا حضاريًّا لا يزال العراقيون بشكل خاص، بل الإنسانية أجمع تنتهل منه[٥].

إذن إنّ الحلّـة هي وريثة بابل وامتداد تاريخي لها، فضلًا عن أنّها أصبحت إشـعاعًا فكريًّا للعراق والعالم الإسلامي لقرون عدّة.

إنّ الأرض التي تحيط ببابل وأراضي الفرات الأوسط خصبة جدًّا تكثر فيها المزارع وبسـاتين النخيل، لذا أطلق عليها العرب بعد الفتح الأسلامي (أرض السواد)، لكثرة غابات النخيل بلونها الأخضر الغامق الذي يتراءى للناظر من بُعد أنّه أسود[٦].

ونتيجة للفيضانات المتكرّرة والعاتية التي تحدث جرّاء فيضان نهر الفرات سـنويًّا، أصبحت التربة الغرينيّة شـديدة الخصب في بلاد بابل ومـا يحيط بها، ومن أغنى مناطق الإنتاج الزراعي في العالم القديم، ومن أهم محاصيلها الزراعيّة الرئيسة منذ ذلك العصر حتى الوقت الحاضر، الحبوب والتمور[٧].

الأقوام التي سكنتها قبل تمصيرها

عُرفت المنطقة التي تقع إلى الجنوب من بابل بـ(سورسـتان)، ولها ينتسب السريان، وهم النبـط، ولغتهم السريانية. والنبط وريثو الحضـارات القديمة التي قامت في بابل، وانتـشر مَـن بقي منهم في المناطق التـي تحيط بالمنطقة بعدما أفل نجـم بابل، وأصبحت أطلالًا. وقـد احتفظ بعضٌ من هذه البقيّة بالمعـارف، أي معارف الحضارات القديمة، ونقلوها إلى العرب بعد الفتح الإسلامي للعراق[٨].

إنّ العـرب هـم الذين أطلقوا اسـم النبط على السريانيين الذين يسـكنون وسـط العـراق وجنوبـه، وذلك لمعرفتهم بأنبـاط المياه لكثرة فلاحتهم، وقـد تعلّم العرب من النبط اسـتخدام الأرض واسـتغلالها وزراعتها، كما تعلّموا منهم استصلاح الأراضي، وتنظيـم الـري، وبعض الحِرَف الصناعية البسـيطة التي كانت شـائعة آنـذاك. ونتيجة لاختـلاط النبط بالعرب وانصهارهم في المجتمع الجديـد، اتقنوا اللغة العربية، فترجموا

بعـض الكتب من السريانية إلى العربية نحو كتاب (الفلاحة النبطيّة) لأحد علماء النبط، كما ترجموا بعض الكتب اليونانية إلى اللغة العربية.

اسـتمر النبط يمتزجون بالعرب المسـلمين بعد اسـتقرارهم في العراق، فدخلوا في دينهـم وتحدّثوا لغتهم، فتأثّروا بالعـرب وأثّروا بهم، حتى أن بعض المفردات من لغتهم دخلـت في لغتنا العاميّـة، مثل كلمة (بزايـز) التي يردّدها أبناء الريف في الوسـط حتى الوقت الحاضر، وتعني نهايات الجداول الصغيرة، بل دخلت حتى في الأمثال الشـعبيّة، ومنهـا المثل الريفي المعروف (فلّاح الصدور ولا مـلّاك البزايز)، ويعني أن يكون بداية الجـدول فلاحًـا أفضل من أن يكون ملّاك للأراضي في نهايـات الجداول الذي لا تصل المياه إلى أراضيه معظم أيّام السنة، فما فائدة الأرض الواسعة دون المياه.

ومـن الكلمات الأخرى التي دخلـت إلى اللهجة العاميّة العراقية، سـيما في الريف (شكارة)، أي يمنح أحد الملّاك قطعة أرض صغيرة إلى شخص معيّن ليزرعها ويعتاش من ورائها دون ثمن، وهي شـائعة عندنا حتى الوقت الحاضر، ولا تزال بعض المناطق التـي تقـع إلى الجنوب من مدينـة الحلّة تختلف لهجاتهـا عن بعضها وعـن بقيّة المناطق، وذلك يعود إلى تأثّرها التاريخي بتلك الأقوام[٩].

وقد اسـتفادت الدولـة العربيّـة الأسـلامية في كلّ مراحلها من النبـط منذ العهد الراشـدي مـرورًا بالعهدين الأموي والعباسي، فقد اسـتفاد منهم العباسـيّون في إدارة دواويـن الحكومـة وتنظيمها، ومن نبـط بابل (آل الفـرات) الذين نبـغ منهم عدد من الرجال في مجالات الكتابة والترجمة والوزارة أيضًا[١٠].

ولا بـدّ مـن القول إنّ بعض العرب كان ينظر إلى النبط نظـرة ازدراء، وهذه مخالفة لـروح الإسـلام وتعاليمه السـمحة، وقد مثّل هـذه النظرة الشـاعر المتنبي حين هاجم

الوزير ابن الفرات بالقول :

بهـا نـبـطـي مـن أهـل الـسـواد يـدرس أنـسـاب أهـل الـعـلى

وعـلى العكس مـن ذلك نجـد الذين يتمسّـكون بروح الإسـلام، ولهـم الحكمة والحصافـة في الرأي وبُعد النظر، ينظرون إلى ذلك الشـعب بـكل احترام وتبجيل، لأنّه شـعب مكافح وعامل قدّم خدمات للعرب المسلمين، فأشار ياقوت الحموي أنّ الإمام عـليّ بـن ابي طالب عليه السلام قال: «نحن معاشر قريش حيّ مـن النبط أهل كوثى، والأصل آدم، والكرم التقوى، والحسب الخلق، وإلى هذا انتهت نسب الناس»(١١).

ولا يسـتبعد أنّ الإمام عليّ عليه السلام أراد أن يقول إنّ أصل قريش من العراق، وتحديدًا مـن منطقة كوثى المعروفة التي تقع أطلالها الآن بالقرب من مدينة (جبلة)، مركز ناحية مشروع المسـيب الكبير التابعة إلى محافظة بابل، والتي أصبحت الآن قضاءً سُمّي بقضاء (كوثا)(١٢).

الحلّة قبل انتقال المزيديين إليها

أشـارت بعض المصادر إلى ان الحلّة كانت قبل تمصيرها «أجمة تأويها السـباع»(١٣)، أي إنّها كانت مكانًا كثيف الأشجار والقصب والبردي، تنتشر فيها الوحوش كالأسود والنمور والخنازير.

في حين أكّدت مصادر كثيرة على أنّ المنطقة التي أُسّست عليها الحلّة السيفيّة كانت مأهولة بالسـكان، وفيها مجتمع متحضّر يسوده النظام والنشـاط الاقتصادي، وأنّ هذا المكان عُدّ صلة الوصل بين مدينة الكوفة وبغداد، ويسـمّى بالجامعين(١٤). وأشار هادي كمال الدين في كتابه فقهاء الفيحاء بأنّ من الوهم الاعتقاد بأنّ تأسيسها كان عام ٤٩٥هـ على يد الأمير صدقة بن منصور، وأنها كانت أرض غابات تسكنها الوحوش، وأكّد أنّ

المكان الذي تقع عليه مدينة الحلّة الآن مأهول قبل مجيء صدقة بوقت طويل، وكان يُطلق عليه الجامعين، وورد هذا الاسم في الفتوح الإسلاميّة، واعتقد كمال الدين بأنّ الفضل في تطوير الجامعين وتوسيعه، ودمج الجامعين في مدينة واحدة، وإطلاق اسم الحلّة عليه يرجع إلى صدقة[١٥].

والباحث يرجّح الرأي الثاني للأسباب الآتية:

١. كانت (الجامعين) مأهولة بالسكان، لكن تحيط بها غابات كثيفة من الأشجار والنخيل والقصب، وهو أمر طبيعي في منطقة تقع على ضفاف الفرات، والسكن فيها قليل، والتجمعات السكانيّة متباعدة، وهذا يعني أنّ تواجد الحيوانات غير الأليفة وحتى المفترسة في هذه الغابات الكثيفة أمر مألوف، لكنه لا يمنع من وجود قرية في المنطقة.

٢. ومن الأسباب التي تجعلنا نرجّح أنّ (الجامعين) مأهولة بالسكان قبل تمصيرها، هو لأنّها قريبة من بابل، والكلّ يعرف ما لها من أهميّة، فكانت عاصمة لدولة مترامية الأطراف، وهي مزدحمة بالسكان، وبعدها أخذت هذه المدينة تتدهور ويأفل نجمها، لأسباب سياسيّة واقتصاديّة وجغرافيّة، ثمّ تلاشت وأصبحت أطلالًا تفرّق الناس عنها، ولكن من غير المعقول أن ينتقل جميع من كان يسكن فيها بعيدًا عنها، لاسيما أنّ المناطق القريبة منها مناطق جذب سكاني، فسكن بعض منهم في هذا المكان الذي سمّي فيما بعد بـ(الجامعين).

٣. أطلق كثير من الباحثين تسمية (الجامعين) على المكان الذي تأسّست فيه مدينة الحلّة، وهذه التسمية لم تأتِ اعتباطًا إنّما كان فيه مسجدان فعلًا، الأوّل هو مرقد الصحابي الجليل عبد العزيز السراي، وهو من القادة الذين شاركوا مع

الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام في معركة النهروان سنة ٣٨هـ، وجُرح في هذه المعركة بجروح بليغة، وعند عودة الإمام عليه السلام بجيشه ومروره في هذه المنطقة، لفظ الصحابي أنفاسه الأخيرة ومات شهيدًا، ودُفن في هذه المنطقة، فأصبح مرقده جامعًا ومزارًا أطلق عليه جامع (السراي)، ولا زال يسمّى بهذا الاسم حتى يومنا هذا، ويقع في منطقة الشاوي خلف مدرسة صفي الدين[١٦].

جديرٌ بالذكر أنّ هذا الصحابي الجليل لم يكن الوحيد الذي خرج واستشهد في هذا المكان، فكان عمران بن علي بن أبي طالب عليه السلام قد أصيب هو الآخر في هذه المعركة، واستشهد ودُفن شمال منطقة الجامعين على التلال الواقعة بينها وبين مدينة بابل الأثريّة، ولا يزال مرقده الشريف يؤمّه المسلمون من مختلف الأنحاء لزيارته، وقد شيّدت بقربه قرية الجمجمة، ولهذه التسمية علاقة بالحدث، وقد تطوّع بعض أبنائها لخدمة الضريح وزائريه منذ تلك المدّة ولا زالوا[١٧].

أمّا الجامع الآخر فهو جامع ومقام الإمام جعفر الصادق عليه السلام (ت ١٤٨هـ)، والذي يقع جنوب مدينة الحلّة الحاليّة، على ضفاف نهر الفرات، على الطريق الرابط بين مركز المدينة ومرقد النبي أيّوب، ولا تزال المنطقة التي تقع بين باب المشهد وحي الشاوي من جهة وشط الحلّة من جهة أخرى تسمّى بمنطقة (الجامعين)، وهي من أقدم مناطق الحلّة وأعرقها، وتمتاز بأبنيتها القديمة وأزقّتها الضيّقة، وعلى هذا الأساس، ولوجود جامع عبد العزيزبن أبي سرايا، ومقام الإمام الصادق عليه السلام سمّيت بالجامعين.

٤. إنّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام مرَّ بهذا المكان مرّتين، الأولى عندما ذهب إلى معركة صفين، وعاد بالطريق نفسه إلى الكوفة، ومرّ به أيضًا عندما ذهب

إلى معركة النهـروان، وعند عودته، نزل في المكان الذي يطلق عليه الآن أهالي الحلّـة (مقام الإمام علي) الذي يقع في منطقة الشـاوي، والـذي يزوره أعداد كبيرة من المسلمين للتبرّك به.

ومـن خلال التمعن بمرور الإمام علي عليه السلام في هـذه المنطقة في كِلتا المعركتين، نسـتطيع أن نستنتج أنّ هذا المكان رابط بين المناطق الوسطى للعراق والمناطق الشـماليّة، وربّما يكون هو الطريق التجاري أو طريق المسـافرين المعتمد، وأنّ الإمـام لم يكـن مروره به اعتباطًـا، إنّما كان طريقًا مأهولًا فيه ممرّ سـهل، وأمر طبيعي أن يكون بالقرب من هذا الممر تجمّع سـكاني نشـيط حتى قبل تسميته بالجامعين.

٥. فضـلًا عمّا نقله بعض المؤرّخين، ومنهم ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ، على أنّ منطقة الجامعين قد اسـتولي عليها ونُهبت عـدّة مرات[١٨]، وهذا يعني أنّ هذه المنطقة مأهولة بالسـكان، وفيها نشاط اقتصادي، والدليل أنّها نُهبت. ونحن نعلم أنّ المناطق التي تُنهب لا بدّ أنّ تتوافر فيها الأمور المشجّعة لعمليّة النهب والاستيلاء، وتكون نشطة اقتصاديًّا.

٦. كان في الجامعـين حيـاة اجتماعيـة منضبطـة، دليلنا على ذلك مـا ذكره ياقوت الحموي من أنّ الحسن بن علي بن محمد بن داود التنوخي مؤلف كتاب (نشوار المحاضرة) تولّى القضاء في الجامعين، وهو من رجال القرن الرابع الهجري[١٩]، وهذا يعني أنّ الجامعين مدينة عامرة، وفيها نظام وضبط وقضاء يحاسـب كلّ من يخالف النظام والعُرف العام.

إنّ دور الجامعين لم يظهر بشكل كبير خلال العهد الأموي، لكنّها تطوّرت في العهد

العبّاسي فتزايدت أهميّتها الاقتصادية، لاسيما أيّام سيطرة قبيلة عقيل على منطقة الفرات الأوسط، وتحسّن وضعها خلال القرن الرابع الهجري، فوصفها الأصطخري بأنّها (منبر) صغير، في الوقت الذي وصفها ابن حوقل بأنّها مدينة.

وأشار المقدسي إلى أنّها مدينة من مدن الكوفة، في الوقت الذي ذكرها ابن سرابيون بأنّها مدينة تقع غرب سورا أو غرب الفرات، وهذا يدلّ على تزايد أهميّة هذه المدينة ومساحتها، لكنها اختلطت أخيرًا بمدينة الحلّة السيفيّة، وأصبحت جزءًا منها[٢٠].

بنو مزيد في ميسان

قبل الخوض في تفاصيل تأسيس الإمارة المزيديّة ونشأتها في الحلّة، لا بدّ لنا من التعريف ببني مَزْيَد (بفتح الميم وسكون الزاي وفتح الياء) وأبرز رجالاتها، والمضارب التي كانوا يسكنون فيها قبل استقرارهم في منطقة الجامعين وتمصير مدينة الحلّة.

بنو مزيد من بطون بني أسد بن خزيمة، وكانت مضاربهم في المنطقة الواقعة بين البصرة وواسط والأهواز وتحديدًا في المناطق القريبة من منطقة ميسان (العمارة) يتنافسون على الزعامة مع بني عمومتهم من بني ناشر بن نصر، وبمرور الأيام مالت كفّة القوى لصالح بني مزيد لظهور زعامات مقتدرة بين صفوفهم، فضلًا عن تحالفهم مع أطياف أخرى من المجتمع لا سيما من الأكراد الشاذنجان والجاوان، فازدادت قوّتهم وقوّة شكيمتهم إلى درجة أنّ الخلفاء العبّاسيين وأمراء آل بويه حاولوا التقرّب منهم وخطب ودّهم، بل اعترفوا بهم رسميًّا بأنّهم أمراء رسميّون على بني أسد والمنطقة، وهذا يعني أنّهم انتقلوا من المشيخة إلى الإمارة، فأخذوا على عاتقهم حفظ الأمن والنظام في المناطق الجنوبية من العراق، وبسطوا نفوذهم على مناطق واسعة من تلك الأرجاء، واستمرّت هيمنتهم ما يقرب من مائة وخمسين سنة، تعاقب على حكم الإمارة خلال

هذه المدّة عدد من الأمراء أوّلهم أبو الحسن علي بن مزيد الذي وصف بأنّه كان باسلا كريمًا قوي الشكيمة مهابًا، له منزلة كبيرة لدى الخلفاء وسلاطين بني بويه[٢١].

ونتيجة لهذه المكانة التي تمتّع بها بنو مزيد، والاحترام والتبجيل التي حضي به من القبائل الأخرى، حصل تنافس شديد بينهم وبين أبناء عمومتهم في المنطقة، ولاسيما بني عفيف الناصري الأسدي الذين كانت لهم الزعامة في المنطقة، فضلًا عن أنّ أبناء قبيلة بني أسد في تزايد مستمر بمرور الوقت، الأمر الذي أدّى إلى أنّ المكان الذي كان يقطنون به لم يعد يكفيهم ولا يسدّ حاجتهم، إلى درجة أنّ الحرب أصبحت وشيكة بين أبناء العم ولا تحتاج إلّا فتيلًا ليشعلها، وفعلًا وقعت الحرب بينهما سنة ٤٠١هـ، وكان السبب المباشر لوقوعها هو أنّ أبا الغنائم شقيق أبي الحسن علي بن مزيد كان يقيم مع بني عفيف في جزيرتهم في ضمن أهوار الحويزة، ونتيجة لخلاف حصل بينه وبين أحد زعماء بني عفيف، قام بقتله وهرب إلى أخيه أبي الحسن ليحتمي به، وأمر طبيعي أن يُجير الأخ أخاه ويدافع عنه مهما كانت الأسباب، ونتيجة لرفض أبي الحسن تسليم أخيه وقعت الحرب بين الطرفين وانتهت بمقتل أبي الغنائم.

ولم ينهِ مصرع أبي الغنائم حدّة الخلاف بين الجانبين، وبقيت روح التباغض والحسد بين الطرفين، وسرعان ما تجدّدت الحرب بينهما سنة ٤٠٥ هـ، بعد أن استعدّ لها أبو الحسن استعدادًا كبيرًا وألّف جيشًا لجبًا من العرب والأكراد، أي الشاذنجان والجاوان، ووقعت الحرب وحصل قتالٌ مرير بين أبناء القبيلة الواحدة انتهت بانتصار أبي الحسن على بني مزيد، ومصرع حسّان ونبهان ولدي دبيس بن عفيف، ولم يكتفِ أبو الحسن بهذا إنّما استباح بيوتهم وأموالهم، وضمّ الجزيرة الدبيسيّة إلى إمارته بعد أن فرّ ما تبقّى من بني ناشر إلى الحويزة، واستمر احتلاله للجزيرة خمسة أشهر، فجهز مضر بن دبيس بن عفيف جيشًا كبيرًا وباغت جيش أبي الحسن دون أن يعلم فاضطرّ الأخير إلى الانسحاب منها.

ونتيجة لحكمة أبي الحسن ورجاحة عقله، قرّر البحث عن مكان أكبر اتّساعًا وأكثر خصبًا وأهمّ موقعًا يضمن حاجات قومه من جهة، وحتى يقطع نزيف الدم بين أبناء القبيلة الواحدة، والذي لا يجلب إلّا الدمار والخراب وازهاق الأنفس من جهة أخرى، وبعد البحث الطويل والخيارات المتعدّدة، استقرّ رأيه على ريف النيل القريب من آثار بابل، والذي لا يبعد عن مركز الخلافة في بغداد، والكثير الخصب، وامتيازه بوفرة المياه لمرور جدول النيل به، فارتحل إليه واستقرّ به[٢٢].

الإمارة المزيديّة في النيل

كانت هناك عوامل عدَّة سياسيّة وعسكريّة ساعدت في ظهور بني مزيد في منطقة النيل وبروزهم على الساحة السياسيّة، فكان للظروف السياسيّة داخل الدولة العبّاسيّة والصراعات الإقليميّة المتمثّلة بالتنافس بين الخلافتين العبّاسيّة والفاطميّة، وظهور خطر قرامطة البحرين والشام، الأمر الذي دعا السلطة المركزيّة في بغداد وسلاطين آل بويه إلى الاعتماد على القبائل القويّة في حماية بعض المناطق، وقد استعان الوزير أبو محمد المهلبي وزير معز الدولة البويهي، والذي تولّى الوزارة سنة ٣٣٩ هـ، بقبيلة بني أسد لحماية سورا وسوادها[٢٣]، وربّما كان التكليف قبل استقرارهم في النيل، ففي سنة ٣٩٧هـ لُقّب أبو الحسن علي المزيدي رسميًّا بلقب (سيف الدولة)، وهذا اللقب الذي منحه إيّاه الخليفة كان مقابل خدمات وواجبات يقدّمها الأمير المزيدي، فضلًا عمّا يقدّمه من أموال[٢٤].

جديرٌ بالذكر أنّ السنوات الأخيرة للقرن الرابع الهجري تميّزت بنفوذ واضح للفاطميين في العراق، سيما أنّ البذور الفكريّة للتشيع موجودة بقوة في العراق، وأنّ الولاء القبلي الذي بدأت قوّته تظهر بوضوح يتأرجح بين السلطة السياسيّة المتمثّلة بالخليفة، وما يمثّله من خط فكري مغاير لما يعتنقه في الغالب الأمراء والزعماء المحلّيون

ورؤساء القبائل وولائهم إلى القبائل وأمرائهم وسلطاتهم الدينية المستقلّة، ما أدّى إلى إشاعة عدم الاستقرار، وهذا ما يمكن تفسيره في ضمن إطار عمليّة الشدّ والجذب بين الخلافتين العبّاسيّة والفاطميّة(٢٥).

اتّخذ المزيديون النيل عاصمة لهم بعد تركهم ميسان، لأنّها تمتلك موضعًا إستراتيجيًّا باعتبارها محاطة بالمدن القديمة المهمّة، فبابل تقع بالقرب منها إلى الشرق، وكوثا شمالها، ونفّر إلى الجنوب منها، وكانت الأقرب إليها كيش التي لا تبعد عنها إلّا ثلاث كيلومترات(٢٦).

وفي العهد الإسلامي كانت النيل منطقة إستراتيجيّة مهمّة، وفيها تجمّع سكاني قبل بناء الحجّاج بن يوسف الثقفي لواسط(٢٧).

وقد ظهرت تسمية النيل في العصر الأموي، وتحديدا في عهد عبد الملك بن مروان، أي بعد تأسيس واسط وحفرجدول النيل الذي يأخذ مياهه من الفرات إلى الشمال من مدينة بابل الاثريّة نتيجة للأعمال الإصلاحيّة التي قام بها الحجّاج في استصلاح أراضي البطائح. ويتّجه نهر النيل شرقًا مارًّا بمدينة النيل، ثمّ يتّجه إلى أراضي واسط، وقد أطلق الحجّاج اسم النيل على هذا الجدول تيمّنًا بنهر النيل في مصر.

بعد نزول الأمير أبي الحسن علي في منطقة النيل رتّب إمارته، ونظّم جيشه، ونشر الأمن في المنطقة، واستقرّ فيها(٢٨).

هيمنت إمارة أبي الحسن ومِن بعده أولاده على معظم المناطق المحيطة بالنيل والجامعين وسورا وما يجاورها في العراق طيلة القرن الخامس الهجري... تدين بولائها في أغلب الأحيان إلى الخليفة العبّاسي وما يتبعه وقوى الملوك البويهيين حتى ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥ م، وبعد هذا التاريخ ظهرت قوة السلاجقة(٢٩).

وهنـاك قوى محليّة ظهرت موازية للمزيديين تمثّلـت بالقبائل العراقيّة، ومنها قبيلة عقيل في منطقة الجزيرة والأنبار والموصل وقبيلة خفاجة غرب الفرات حتى الكوفة.

ولا بـدّ لنا من القـول إنّ التحالفـات بين القبائـل بعضها البعض أو بـين القبائل والسلطة المركزيّة غير مستقرّة، وتتغيّر حسب المصالح والأهواء السياسيّة والاقتصاديّة والعسـكريّة، فضلًا عن كثرة الصراعات بين الأمراء البويهيين والسـلاجقة، مع وجود نفـوذ للفاطميين في العراق، لوجود حواضن ومؤيّدين لهم، فـكان مؤيد الدين هبة الله الشـيرازي من أخلص دعـاة الفاطميين الذين اتّخـذوا العراق مركـزًا لنشر دعوتهم في المشرق، ممّا أدّى إلى تخلخل النفوذ العبّاسي[٣٠].

وبعد أن رتّب أبو الحسـن علي بن مزيد إمارته في النيل وثبّت أركانها أدركته المنيّة، فتوفي في ذي القعدة من عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م، وأشاد به ابن الجوزي في المنتظم ووصفه بالزعيم المقتدر الشـجاع الذي «ولى الولايات والاعمال»، وذكر بأنّ علي بن مزيد سافر للقاء سـلطان الدولة فمرض في طريقه واشتدّ به المرض، فبعث بابنه دبيس للنيابة عنه، وكتب إلى سـلطان الدولة أن يقلّده الولاية وإقراره عـلى الأعمال والممتلكات التي كان يتقلّدها هو، فأُجيب إلى طلبه، وخلع السلطان على دبيس وكتب له الأمر به للولاية[٣١]، ولقّبه بنور الدولة، وكان يبلغ من العمر ١٤ سنة، واستمرّت مدّة حكمه (٦٧) سنة.

كان دبيـس رجلًا كريمًا فقصدته بعض الشـخصيات إمّا التجاءً إليـه، أو هربًا من السـلطان، أو ضيافة له، منهم الشرابي صاحب البطحة، وقد اهتمّ بالأمن وقوّى جيشه المتكوّن من العرب والأكراد، وقصده الشعراء ومنهم مهيار الديلمي[٣٢].

إنّ تكليـف الأمـير دبيس بالإمـارة لم يرق لعدد مـن إخوته، فسرعـان ما ظهرت الخلافات والانشقاقات بينهم، فنافسه على الزعامة أخوه المقلّد الذي استعان بالأتراك على

أخيه، وجرت بين الأخوين معركة بالقرب من (النعمانية)، وبعد قتالٍ قاسٍ انهزم دبيس إلى نواحي واسط، حتى يعيد تنظيم صفوفه، فاستغلّ بنو عمه انشغاله بالحرب ونزلوا بالجامعين، لكنّ دبيسًا قدِم إليهم وانتصر عليهم، واستعدّ لمحاربة اخيه المقلّد حتى تدخّل أحد الأمراء المعروف بأبي الشوك وأصلح بينهم وعاد الصفاء بين الأخوين.

لكن الضغائن والأحقاد لم تنتهِ بين الإخوة، فمالت الأطراف المتنافسة على كلّ من يساعدهم من القبائل والجيوش والاستعانة بالزعماء الأجانب[٣٣].

ففي سنة ٤٢٤هـ استعان أخوه الآخر ثابت بن علي بن مزيد بالبساسيري، وساروا لقتال دبيس ودخلوا النيل واستولوا عليها، فأرسل لهم دبيس جيشًا لإخراجهم من النيل، لكن جيشه هُزِم أوّل الأمر، فاستعان بقبيلة خفاجة والتقى الجمعان عند مكان يطلق عليه (جرجرايا) فوقعت الحرب بين الجانبين، لكن تدخّل أطراف أخرى أدّى إلى قيام الصلح بين الأخوين على أن يعود دبيس إلى أعماله، ويُقطع أخوه ثابت أقطاعًا من أملاكه، بعدها أصبح دبيس قويًّا إلى درجة أنّ الملك البويهي صار يعتمد عليه[٣٤].

لكن دعاة الدولة الفاطميّة أخذوا يشجّعون الأمراء على الانفصال من الخلافة العبّاسيّة والاعتراف بالخلافة الفاطميّة، فقطع دبيس الخطبة للعبّاسيّين وخطب للفاطميّين، واستمر الوضع حتى سنة ٤٥٠هـ كلّها. كذلك فعل البساسيري في بغداد، فاستنجد الخليفة العبّاسي بالسلطان طغرل الذي جاء إلى بغداد وقطع خطبة الفاطميّين وأعادها إلى العباسيين وقتل البساسيري، فوجد دبيس أن من مصلحته أن يلاين السلطان طغرل، وفي الأخير استرضاه، وأعاد الخطبة إلى العباسيّين، فأقرّ دبيس على أعماله، وبقي حتى وفاته سنة ٤٧٤هـ[٣٥] عن عمر يناهز الثمانين، فرثاه الشعراء وأبّنه الأدباء[٣٦].

تولّى بعده الإمارة المزيدية ابنه أبو كامل منصور بن دبيس الذي استمر بالحكم مدّة

خمس سنوات من سنة ٤٧٤هـ حتى سنة ٤٧٩هـ، وقد وُصِف أنّه عالي الثقافة، أديبٌ وشاعرٌ فاضلٌ، ذو رأي وحسن تدبير، يحفظ أخبار المتقدّمين وسيرهم، شجاعٌ كريمٌ له ذكاء شديد، وافر الأمن، ولقّب ببهاء الدولة. خلت مدّة حكمه من أيّ أحداث سياسيّة مهمّة، فضلًا عن أنّه تجنّب الدخول في الصراعات ونأى بنفسه، لذا كانت الإمارة المزيديّة في عهده هادئة.

توفّي سنة ٤٧٩هـ، ولما علم نظام الملك السلجوقي بنبأ وفاته قال: «توفّي أجلّ صاحب عمامة»[٣٧].

إمارة الأمير صدقة بن منصور ٤٧٨-٥٠١هـ

تولّى الأمير صدقة بن منصور الإمارة بعد وفاة والده أبي كامل منصور بن مزيد سنة ٤٧٩هـ، واستمرّ فيها حتى سنة ٥٠١هـ/ ١٠٨٥-١١٠٨م.

أرسل إليه السلطان ملك شاه السلجوقي نقيب العلويّين أبا الغنائم ممثّلًا عنه ليعزّيه بوفاة والده، بعدها سار الأمير صدقة إلى السلطان فرحّب به السلطان، وخلع عليه شارة الإمارة، ولقّبه بسيف الدولة[٣٨].

عُدّت مدّة حكم صدقة من أهمّ مراحل تاريخ الإمارة المزيديّة، فخلالها توسّعت الإمارة بصورة كبيرة، وثبّت لآل مزيد كيانًا خارجيًّا قويًّا، وهذا يعود بالدرجة الأساس إلى الشخصيّة القويّة التي تمتّع بها صدقة، فضلًا عن كفاءته السياسيّة والعسكريّة.

جديرٌ بالذكر أنّ صدقة كان الابن المقرّب والمرشّح لمنصب الإمارة بعد أبيه، ثمّ إنّه كان يتمتّع باحترام كبير من كلّ إخوته وأقاربه، لذا جاء تنصيبه مؤيّدًا من قِبل أفراد الأسرة المزيديّة، على عكس ما واجهه جدّه دبيس، ولهذا فإنّه لم يضيّع وقته ويشتّت قوّته ويضعف طاقته في مثل تلك الحروب التي خاضها دبيس مع إخوته وأبناء عمومته[٣٩].

أمّا علاقة صدقة بالسلطة المركزيّة والمتمثّلة بالسلطة السلجوقيّة، فيمكن تحديدها بمرحلتين:

الأولى: والتي امتدّت من بداية تولّيه السلطة حتى سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م واستمرّت ما يقرب من سبع سنوات، وهي المدّة التي وصلت فيها سلطة السلاجقة إلى أوج قوّتها من الناحيتين العسكريّة والسياسيّة تحت قيادة السلطان ملكشاه بن أرسلان[٤٠]، لذا لم يقم الأمير صدقة بفعّاليّات كبيرة كالتي قام بها في المرحلة الثانية، والسبب في ذلك واضح، ومردّه لعدم قدرته على الخروج عن طاعة السلاجقة، لنفوذهم الواسع وبأسهم القوي[٤١]، فوجد صدقة أنّه من الحكمة أن يلاينهم ويتماشى مع سياستهم، إضافة إلى السياسة العامّة التي اتّبعها السلطان ملكشاه في تعامله مع الإمارات المحليّة المحصورة في العراق، فقد وجد أنه من الأصلح الاعتراف بالأمر الواقع، وعدم التحرّش بها، وجعلها تتمتّع بالحكم الذاتي بدلًا من إثارتها وصرف الأموال الطائلة لأجل محاربتها، والتفرّغ للقضاء على الحركات الانفصاليّة والتمرّدات التي قادها بعض من أفراد أسرته، فضلًا عن أنه يستطيع الاعتماد على تلك الإمارات في مجابهة الاعتداءات والتمرّدات التي تقوم بها القبائل البدويّة على المناطق المحيطة[٤٢].

ولا بدَّ من القول إنَّ صدقة سار إلى ملكشاه ليحصل على الاعتراف الرسمي، وقد خلع عليه السلطان وولّاه على ما كان لأبيه، وقد أشار الدكتور عبد الجبار ناجي الأسدي بعدم ورود أي ذكر على أنّ ملكشاه قرّر على صدقة مبلغًا من المال يدفعه سنويًّا، لكنّه رجّح أنّ السلطان اشترط ذلك[٤٣]. وقد استند في رأيه إلى أنّ صدقة أقام للسلطان وليمة كبرى سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م وأعطاه عشرين ألف دينار وأنواعًا مختلفة من المصوغات، ومن المحتمل أنّ هذا المبلغ كان من ضمن المبلغ المقرّر على صدقة، وهذا ما اكده ابن الجوزي على أنّ صدقة الآن مستمر في دفع مبالغ مقرّرة سنويًّا للسلطان[٤٤].

وظلّ صدقة مطيعًا للسلطان ملكشاه، فعندما هاجم بنو عامر – الساكنين في منطقة الأحساء – على البصرة ونهبوها، انتدبه السلطان لصدّ هؤلاء وتأديبهم، وقد نفّذ صدقة الأمر وسار إلى البصرة، لكنه وجد أنّهم قد انسحبوا فلم يصطدم بهم(٤٥). أمّا العلاقة بين الأمير صدقة والخليفة العباسي فكانت حسنة بحذر من البداية، فعندما توفّي والد صدقة سنة ٤٧٩هـ، أرسل الخليفة نقيب العلويّين إلى صدقة ليعزّيه باسم الخليفة، وهي دلالة على أهميّته السياسيّة وكسبه إلى جانبه، لذا لم يتوانَ الخليفة بالاستنجاد بصدقة عندما وقعت فتنة بين السنّة والشيعة في بغداد سنة ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م، والتي أدّت إلى قتل نفوس ونهب ممتلكات، وفعلًا أرسل صدقة نجدة عسكريّة إلى بغداد استطاعت أن تهدّئ الأمور وتعيد النظام بعد معاقبة المعتدين(٤٦). وأشار الدكتور عبد الجبار ناجي أنّ تكليف الخليفة لصدقة لحفظ الأمن في بغداد ما هو إلّا اعتراف بسلطته «واعتباره المدافع عن شؤون الشيعة بوصفه من الطائفة الشيعيّة، ومن المحتمل أيضًا أن تكون وسيلة أخرى من وسائل الخليفة لكسب ثقة صدقة وتأييده»(٤٧).

أمّا المرحلة **الثانية**: التي امتدّت من سنة ٤٨٥هـ وحتى مقتل صدقة سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧م، فقد اتّسمت بارتباك الأوضاع السياسيّة والصراع المستمر بين أفراد الأسرة السلجوقيّة على السلطة، فضلًا عن خطر الصليبيين الذين سيطروا على أجزاء مهمّة من الدولة العبّاسيّة.

استغلّ الأمير صدقة هذه الأوضاع لتعزيز إمارته، فأخذ يميل إلى الجانب القوي ضد الجانب الآخر، ووسّع إمارته ونفوذه، وشكّل إمارة مستقلّة، وحاول فرض آرائه وإعلان ثورته، لكنّه لم يقطع أواصره بالسلطان بركيارق أوّل الأمر، فقد ظلّ مؤيّدًا له وداعمًا لسياسته، فعندما استولى أبو سعيد تتش بن محمّد ألب أرسلان على بغداد سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وأزال خطبة بركيارق، توجّه صدقة بجيش إلى بغداد ودخلها، الأمر

الذي حدا بالداعية تتش إلى ترك بغداد[٤٨].

إن دعم الأمير صدقة للسلطان بركيارق لم تكن الا مناورة وعمل (تكتيكي) لاعلان ثورته ضد الوجود الأجنبي السلجوقي، وإعادة السيطرة العربيّة للبلاد، لذا تغيّر موقفه وأعلن عداءه وثورته على السلطان بركيارق، ومالَ إلى جانب أخيه السلطان محمّد الذي كان في صراع محتدم معه، وكان الأمير صدقة يخطّط أساسًا للثورة ضدّ السلاجقة، لكنّه أراد الوقت المناسب لإعلانها بعد وجود المسوّغ.

نتيجةً لما كان يمرّ به السلطان بركيارق من ضعف وضائقة ماليّة، أرسل وزيره الأغرّ أبا المحاسن الدهستاني سنة ٤٩٤هـ إلى صدقة وهدّده إذا لم يدفع لخزانة السلطان ألف ألف دينار سوف تقدم العساكر عليه وتطرده من إمارته، فعدّ صدقة ذلك إهانة له وتحدّيًا لامارته، فغضب غضبًا شديدًا وطرد الوزير بطريقة مهينة عندما أمر جنده بقطع أطناب خيمته، فوقعت الخيمة على الوزير، فخرج بطريقة مزرية وتوجّه مسرعًا إلى بغداد، وردًّا على تهديد السلطان لصدقة، قطع الأخير خطبته للسلطان بركيارق، وأعلن الثورة عليه، وخطب للسلطان محمّد الذي سيطر على بغداد وطرد بركيارق منها. ثمّ أرسل صدقة جيشًا إلى الكوفة وسيطر عليها وضمّها إلى إمارته[٤٩].

انتقال الأمير صدقة إلى الجامعين واتّخاذها عاصمة له

بعد أن ساءت العلاقة بين السلطان بركيارق والأمير صدقة، قرّر الأخير الانتقال إلى الجامعين لتكون عاصمة لإمارته.

لكنّ السؤال الذي يتبادر إلى الذهن، هو: لماذا اختار صدقة هذا المكان ليكون عاصمة له؟ علمًا أنّه لا يبعد عن عاصمته الأولى النيل إلّا بضع كيلومترات، والباحث يرجّح أنّ هناك مسوِّغات عدّة حَدَت به إلى اختياره هذا المكان، منها:

١. عُرف صدقة بذكائه، ومقدرته القياديّة، وتفكيره العسكري، وسرعة بديهيّته في المعارك، ووضعه الخطط التعبويّة المناسبة في الحرب، لذا أراد أن تكون عاصمته في موقع يسهل الدفاع عنها في حالة تعرّضها إلى هجوم معادٍ. فاختار المنطقة الغربيّة من نهر الفرات، وتحديدًا منطقة الجامعين، وهذا يدلّ على أنّ له إستراتيجيّة عسكريّة وبُعد نظر، ليضع الفرات أمام قوات السلاجقة في حرب محتملة معه، ثمّ إنّه سيكون صاحب المبادءة في عمليات الكرّ والفرّ في هذه الحرب، فإذا ما وجد أنّ قواته أقوى من العدو وقادرة على الانتصار، عبر عليهم ليكسر شوكتهم، وإذا شعر بتفوّقهم تحصّن في الجامعين المحاطة بغابات النخيل والأشجار الكثيفة والبردي، ثمّ إنّه يستطيع المناورة والتنقّل بقوّاته باتّجاه الجنوب والغرب، لاتّصاله بالصحراء، لاسيما أنّ نهر الهنديّة غير موجود في تلك المدّة.

٢. إنّ هذا الموقع سيكون حلقة الوصل بين الكوفة وبغداد والأنبار والمناطق الجنوبيّة من العراق، فضلًا عن قربه من كربلاء والنجف وسهولة الاتّصال بهما، وهما من المناطق المقدّسة عند المسلمين في كلّ أرجاء العالم.

٣. وقوع العاصمة الجديدة على نهر الفرات مباشرةً يعزّز من مكانتها التجاريّة، ولتكون مرفأً للسفن النازلة من الشمال والصاعدة من الجنوب، وهذا ما يُكسبها أهميّة خاصّة.

٤. تصلح الجامعين معبرًا لقوافل الحجّ القادمة من بغداد والأناضول وبلاد فارس، وهذا ما سيزيد أهميّتها كونها تصبح محطّة رئيسة لاستراحة القوافل، وسوقًا للتبضّع والاستزادة لما يحتاج إليه الحجّاج قبل سفرهم إلى مكّة عن طريق صحراء واسعة وطويلة.

٥. اشتهرت الجامعين بخصوبة أرضها، ووفرة مياهها، وكثرة بساتينها، فهي إذن عامل جذب تتوافر فيها كلّ المستلزمات التي تجعل منها مدينة زاهية، إذا ما تهيّأت لها القيادة المناسبة.

ولا بدّ أنّ نقول إنّ الأمير صدقة كان يخطّط سلفًا للانفصال عن السلاجقة، ويستقل عنهم تمامًا بعدما يؤسّس إمارة تكون نواة لدولة عربيّة تُرجع هيبة الدولة العربيّة الإسلاميّة، ويطرد منها الأجانب لينتشر فيها الأمن، ويتحقّق المساواة قائمة على أسس صحيحة ومتينة، ويطبّق فيها شرائع الإسلام الصحيحة بعد أن عبث فيها السلاجقة، وفرّقوا الدولة، ونشروا الخراب فيها، فكان صدقة يرقب الأحداث والانشقاقات، فوجد أنّ الظروف مؤاتية للانفصال، نتيجة لتوتر العلاقة بينه وبين بركيارق، وعدم تنفيذه لأوامره والاستجابة لطلباته، لذا بدأ بالثورة واتّخذ من الجامعين عاصمة جديدة له.

انتقل إلى الجامعين سنة ٤٩٥هـ ومصّرها، ووضع الخطط اللازمة لتنظيمها، وأطلق عليها حلّة بني مزيد، أو الحلّة السيفيّة، وسرعان ما ازدهرت هذه المدينة وكثر فيها البناء والحدائق الغنّاء والشوارع المنسّقة الجميلة. ومن أجل حمايتها من غارات الأعراب من الجهات الغربية والجنوبية، حفر الأمير صدقة خندقًا عام ٤٩٨هـ أحاط بالحلّة من الجهة الشماليّة والغربيّة والجنوبيّة، ثمّ سوّرها بسورٍ عالٍ سنة ٥٠٠هـ، ليجعلها عصيّة على الأعداء، وبعد ذلك أوصل جانبي نهر الفرات بجسر أطلق عليه جسر القوارب، ليسهل الاتّصال بين الكوفة وبغداد عِبر مدينة الحلّة، فأصبح طريق الحلّة هو الطريق الرئيس بين الجنوب وبغداد، ثمّ شمال العراق وشرقه. كما اهتمّ صدقة بالأمور العمرانيّة والإداريّة والثقافيّة، ووجد أنّ ازدهار إمارته وتقدّمها لا يتمّ إلّا حينما ينشر العدل ويسود الأمن، لذا اهتمّ بهذين الجانبين.

كان الأمير صدقة عفيفًا لم يتزوّج إلّا مرّة واحدة، ولا يشرب الخمر، ولا يسمع الغناء،

ولم يصادر أحدًا، و كريما إلى درجة أنّ داره في النيل وبغداد والحلّة حرم للقادمين وملجأ للخائفين، ووُصِف بأنّه من (أعاظم) الرجال، كتب عنه أشهر المؤرّخين، ومن أهمّ صفاته أنّه اتّصف بحبّه للعلم، يحترم العلماء والأدباء، ويغدق عليهم الأموال، لأنّه أدرك أن تقدّم البلاد لا يتمّ إلّا برفع منزلة علمائها، لذا توافد العلماء والشعراء والأدباء وطلّاب الجاه على الحلّة السيفيّة من كل مكان[٥٠]، حتى لقّبت الحلّة بعاصمة الشعراء.

وسرعان ما ازدهرت مدينة الحلّة فوصِفت أسواقها بأنّها حافلة بالصناعات الضروريّة والمرافق المدنيّة، لهذا قصدها التجّار وأصبحت من اشهر مدن العراق، وعُرفت بكثرة الخيول العربيّة الأصيلة فيها، وهذا دلالة على ارتفاع المستوى المعاشي لسكّانها، حتى وصفها ابن جبير بأنّ منازلها كانت بين الحدائق الغنّاء[٥١].

شعر سيف الدولة أنّ أمراء السلاجقة قد عاثوا في الأرض فسادًا، وقسّموا العراق بين قادتهم ومحسوبيهم من الأتراك، وانعدم الأمن والعدل فيه، وامتُهنت كرامة الناس، لذا قطع سيف الدولة عهدًا على نفسه لتطهير البلاد وتخليص العباد من هؤلاء الظالمين، فبدأ بتثبيت أركان إمارته، واهتمّ بجيشه وحاول تنظيمه وفق أحدث الأساليب المتّبعة آنذاك، فوضع على رأس قيادة جيشه سعيد بن حميد العمري الذي اشتهر بشجاعته وبراعته في الأمور الحربيّة، استعدادًا لتوسيع إمارته

اتّساع الإمارة واتّخاذ الحلّة عاصمة للدولة المزيديّة

بعد انتقال صدقة إلى عاصمته الجديدة الحلّة، قطع الخطبة إلى السلطان بركيارق، وخطب لأخيه السلطان محمّد[٥٢] الذي انتصر على بركيارق وجلاه من بغداد التي سيطر عليها، إلّا أنّ الأمر لم يستمر، ففي سنة ٤٩٦هـ انتصر بركيارق على السلطان محمّد وأعيدت الخطبة في بغداد باسمه، لكن صدقة استمرّ في الخطبة للسلطان محمّد في

إمارته، ولم يكتفِ بهذا، بل انطلق بجيشه من الحلّة وهاجم بغداد وحاصرها، فارتبكت الأوضاع الاقتصاديّة فيها وارتفعت الأسعار ارتفاعًا فاحشًا، فاضطرّ الخليفة إلى إرسال قاضي القضاة أبي الحسن إلى صدقة وطالبه بالكفّ عن بغداد ورفع الحصار عنها، غير أن صدقة رفض الانسحاب، واشترط لانسحابه بخروج القيصري وكيل بركيارق من بغداد، وهدّد بالدخول إلى بغداد بالقوة في حال عدم تنفيذ شرطه، فأذعن الخليفة إلى الأمر الواقع، واقنع القيصري بالخروج من بغداد، وأعيدت الخطبة للسلطان محمّد. وبعد انسحاب القيصري من بغداد توجّه إلى واسط ودخلها، وأقام الخطبة فيها إلى بركيارق، فلحق به صدقة وحاربه وانتصر عليه وطرده من واسط شرّ طردة[٥٣].

وبعد الانتصارات التي حقّقها صدقة واتّساع سطوته وفرض قوته حتى على بغداد، أصر على ادخال اسمه في الخطبة بعد اسم السلطان محمّد، ونتيجة للمكانة التي حصل عليها صدقة عرض عليه مملوك زنكي بن جكرميش في الموصل تسليمه الولاية، إلّا أنّ صدقة رفض العرض، لأنّ الموصل كانت تابعة للسلطان محمّد، وهو لا يريد أن تسوء علاقته بالسلطان.

فيما نجد أنّ صدقة يسارع إلى نجدة والي طرابلس الذي تعرّض لمضايقات الفرنجة، عندما طلب منه السلطان محمّد ذلك[٥٤]. ونتيجة لما قدّمه صدقة للسلطان محمّد لم يعترض الأخير على سياسته التوسّعيّة، فأخذ يوسّع إمارته شمالًا وجنوبًا، فبعد أن سيطر على الجامعين والكوفة، فضلًا عن أملاك أبيه وجدّه في نهر الملك وكوثا وكل مناطق الفرات الأوسط، حاول أن يضمّ مناطق أخرى حتى يضمن السيادة القبليّة على كلّ العراق[٥٥].

ضمّ صدقة الأنبار إلى إمارته ثمّ استولى في سنة ٤٩٦هـ على هيت بعد أن جهّز لها جيشًا لجبًا وأخذها بالقوّة. وفي سنة ٤٩٧هـ قاد صدقة جيشًا استطاع به أن يسيطر على

عانة رغم قوّة دفاعاتها، وهزم جيش الأتراك الذي كان يتحكّم بها، وفي السنة نفسها ضمّ واسط إلى إمارته بالقوّة[٥٦]، ثمّ توجّه صدقة بجيشه واحتلّ البصرة سنة ٤٩٩هـ، وعاد إلى الحلّة بعد أن عيّن شحنة عليها يستلم الأوامر منه[٥٧]. وأشار يوسف كركوش بأنّ العرب فرحوا بهذا الفتح وبارك له الشعراء بقصائد مدح، واشادوا بها وبشجاعته وإقدامه وبسالته[٥٨].

وفي سنة ٥٠٠هـ جهّز صدقة جيشًا كبيرًا واتّجه إلى تكريت، واستطاع الاستيلاء عليها وجعلها تابعة إلى إمارة الحلّة المزيديّة، وفي السنة نفسها بعث صدقة بن مزيد ابنه بدران على رأس جيش كبير إلى البطيحة بعد أن استنجد به أهاليها لحمايتهم من هجمات الأعراب.

علاقة الأمير صدقة بالخليفة العباسي المستظهر

ولا بدّ لنا من توضيح علاقة صدقة بالخليفة العباسي، والذي أخذت مكانته خلال هذه المدة بالتحسّن، ويعود سبب ذلك إلى انشغال السلاجقة بخلافاتهم العائليّة ومنازعاتهم الداخليّة، وبما أن الخليفة لا يستطيع الوقوف بمفرده بوجه السلاجقة، فكان لا بدّ له من الاعتماد على الأمراء الأقوياء القريبين منه، وفي التقلّب في تأييد السلاطين المتنازعين تبعًا للظروف السياسيّة في العراق[٥٩].

ومن خلال التمعّن بالحوادث السياسيّة التي وقعت في هذه المرحلة التاريخيّة، نجد أنّ من الصعوبات التي واجهت الخليفة في توسيع نفوذه وتقوية مركزه، هو وجود صدقة بن مزيد، بالرغم من العلاقة الحسنة بينهما في الظاهر، وبالرغم من أنّ الخليفة طلب من صدقة المساعدة العسكريّة للقضاء على الاضطرابات والفتن، وتثبيت سلطته في العاصمة، ومن جهة أخرى حاول الخليفة أن لا يوسّع نفوذ صدقة وعدم ازدياد قوته حتى لا يهدّد مركزه إذا ما حصلت القطيعة بينهما، كما أنّ الخليفة كان يخشى من طموح

صدقة في السيطرة على العراق، بما في ذلك عاصمة الدولة العبّاسيّة بغداد، وأضاف عبد الجبار ناجي سبب آخر من هذا التوجّس، هو أنّ صدقة كان يمثّل شيعة العراق، وشيعة العراق لهم موقف معادٍ من العبّاسيّين، لأنّهم سرقوا الثورة التي قامت ضدّ الأمويين من العلويّين لصالحهم، وضربوا العلويّين وأبعدوهم عن السلطة الشرعيّة التي يستحقونها(٦٠).

وعندما أعلن صدقة استعداده لصدّ قوّات السلطان بركيارق التي هدّدت بغداد وهدّدت مركز الخليفة نفسه، ليكسب ثقة الخليفة والسلطان محمّد الذي هيمنت قوّاته على بغداد شكره الخليفة وقال له: «إنّ الخليفة يعتقد منك الصارم الغضب»(٦١).

وبذلك حقّق الخليفة جانبين مهمّين في هذا القول، الأوّل هو التقليل من نفوذ صدقة، باعتباره حامي دار الخلافة وإشعاره بأنّ الخليفة لا يريد مساعدته، والثاني كسبه إلى جانبه. وقد برز صدقة وأصبح الرجل الثاني في العراق حينما لقّبه الخليفة بـ(ملك العرب)(٦٢)، وخلع عليه خلعًا لم تخلع على أمير قبله، وهو اللقب الذي أطلقه الخليفة الفاطمي على دبيس بن علي، لكنّ الحقيقة تدعونا إلى القول بأنّ هذا اللقب الصادر عن خليفة بغداد عاصمة الدولة العبّاسيّة يكون له أبلغ الأثر، وهي دلالة اعتراف الخليفة بما وصل إليه صدقة من نفوذ ومكانة، كما أنّ هذا اللقب له أهميّة اجتماعيّة كبرى، إذا أصبح صدقة ملكًا على جميع قبائل العرب، هذا اللقب الذي لم يحصل عليه رئيس قبيلة أو أي أمير عربي من خليفة العباسيّين.

وقد كان صدقة أهلًا لهذا اللقب، فقد أشار أبو البقاء عندما تعذّر على الحجّاج الذهاب إلى مكّة، بسبب هجمات القبائل، بعث الخليفة كتابًا إلى صدقة وطلب منه حماية الحجّاج، فأخبر صدقة قائد جيشه حميد بن مقلد العمري بأخذ قوّة كافية ومرافقة قافلة الحجاج وذهبت القافلة إلى مكة وعادت إلى بغداد دون ان تعترضها أي قبيلة.

لم يقتصر التنافس بين صدقة والخليفة على المجال السياسي بل تعدّاه إلى الجانبين الإداري والاجتماعي، فكان صدقة كريمًا «يغترف من جوده فقير العرب والغني»[٦٣]، وكانت له دار في بغداد أهداه إليه الخليفة، أصبحت ملجأً للمطارد والمقطوع وعابر السبيل، حتى قدر ما ينفقه على المطابخ بستّين ألف دينار، وهو مبلغ كبير في تلك المدّة[٦٤].

وقد مدحه الشعراء بقصائد طوال، فعلى سبيل المثال أهدى له ابن الهباري أرجوزة سمّاها (الصادح والباغم) تتكوّن من ألف بيت، وهي على نظم كليلة ودمنة[٦٥].

إنّ إغداق الأموال على الشعراء من قِبل صدقة أراد منه غَرَضين: **الأوّل** اجتماعي أدبي، ليظهر كرمه وسخاؤه وحبّه للشعر والأدب.

والثاني سياسي، لإظهار نفوذه وسطوته، لأن ما قيل في مدحه من الشعر قد فاق الخليفة نفسه، وليوجّه الأنظار أيضًا إلى مدينة الحلّة بوصفها عاصمة الشعراء الجديدة التي بدأت تنافس بغداد[٦٦].

ولا بدّ من إلقاء نظرة على المجتمع الحلي في عهد سيف الدولة صدقة بن منصور فقد كانت تتكوّن من العرب والأكراد والنبط، وكان أكثر العرب من بني أسد، ولهم السيادة، وهناك من عرب خفاجة وعبادة وعقيل، وكان أكثر الأكراد من الجاوان والشاذنجان، وهم من القبائل الكرديّة التي حالفت بني أسد وشاركتهم السرّاء والضرّاء حتى قبل نزوحهم إلى النيل وخاووهم وصاهروهم حتى اندمجوا بهم[٦٧]، ثمّ إنّهم ساعدوا الأمير صدقة في تخطيط مدينة الحلّة وبنائها، وكان صدقة يعتمد عليهم كثيرًا، وكانت أمّه من الأكراد الورّاميين، واندمج الأكراد بالمجتمع الحلّي، ولا تزال منطقة في الحلّة تسمّى منطقة الأكراد، وهي من المناطق العتيدة التي وجدت منذ تمصير صدقة لمدينة الحلّة.

ثورة صدقة بن منصور سنة ٥٠٧هـ ومصرعه

تعدّ سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧م من السنوات التي لها أهميّة في تاريخ الإمارة المزيديّة، إذ أعلن صدقة الثورة على بغداد بإعلان الحرب على السلطان، وكان السبب المباشر- كما أشار إليه ابن الجوزي- هو مطالبة السلطان محمّد بأن يسلّمه أبا دلف سرخان حاكم ساوة الذي التجأ إلى صدقة واحتمى به، لكنّ صدقة رفض رفضًا قاطعًا تسليمه، بوصفه عربيًّا لا يسلِّم من استجار به مهما كانت العواقب، وكان السلطان قد اوغر قلبه على صدقة، كما أنّ الخليفة بدأ يخشى من صدقة، لأنّ مركزه ونفوذه أصبحا كبيرَين، فقد سيطر على المدن المهمّة سياسيًّا واقتصاديًّا، كما خضعت له القبائل العربيّة في العراق.

كلّ هذه الأمور دفعت بالسلطان محمّد إلى تجهيز جيش كبير لمحاربة صدقة والقضاء على ثورته، وحاول الخليفة المستظهر أن يُصلح بينهما، وأرسل إلى سيف الدولة نقيب النقباء علي بن طراد الزيني، فأجابه صدقة بأنّه لا يثق بالسلطان ولا يأمن على نفسه في الاجتماع به، فأرسل إليه السلطان قاضي القضاة أبا سعيد الهروي ليزيل الخوف عنه، فرفض صدقة، لأنّه كان يعتقد بأن السلطان لا يريد الصلح بعدما مَلَءَ الوشاة قلبه غيظًا، وحاول الخليفة مرّة أخرى للوساطة بينهما، فدعا صدقة للمجيء إلى بغداد لإقامة الصلح بينه وبين السلطان، فأجاب الخليفة بأنّه لا يتراجع عن ثورته إلّا إذا رحل السلطان محمّد عن بغداد، وأنّه- أي صدقة- على استعداد لتناسي الخلافات، كما أنّه مستعد لإرسال الأموال إلى السلطان وكل ما يريد من رجال، لا سيما أنّه بحاجة إلى الرجال لمقاتلة الفرنجة (الصليبيين).

ونتيجة لإصرار صدقة على موقفه، ورفض كلّ محاولات الصلح مع السلطان محمّد، سار السلطان بجيشه إلى واسط، وطرد عامل صدقة بعد معارك جانبيّة استخدم فيها صدقة الكرّ والفر، وكانت المعركة الفاصلة بين جيش الأمير صدقة وجيش السلطان

محمّـد قرب النعمانية، وبعد أن طالت المعركة بين الجانبـين، تخلّت بعض القبائل العربيّة عن صدقة، فلمّا حمى وطيس الحرب، كشف عن رأسه وصاح بأعلى صوته: «يا آل خزيمة يـا آل عوف يـا آل ناشر، أنا تاج الملوك، أنا ملك العرب، النـار ولا العار»، وقاتل قتالًا باسلًا، ووعد الأكراد ومن بقي معه من العرب صامدًا بالخير وكلّ جميل، لأنّهم أبلوا معه بلاءً حسنًا، وعندما بالغ في التقدّم باتّجاه العدو، ووصل إلى قلب المعركة، رشقه الأتراك بآلاف السـهام التـي اخترقت العديد منها جسـمه، فأصيب إصابات بليغة، ثمّ سـقط شـهيدًا بعدما أظهر من الشجاعة والإقدام ما يليق به، وحُزَّ رأسه وأُخذ إلى (البرسقي) قائد جيش السلاجقة، وتم أسر ولده (دبيس)، وبلغ عدد القتلى من الجانبين ثلاث آلاف مقاتل، وهذا يدّل على شراسة المعركة وقوّتها وكثرة من شارك فيها[٦٨].

بعدها أرسـل السلطان محمّد على زوجة سـيف الدولة وآمنها، فذهبت إلى بغداد، وأمر بأطلاق ولدها دبيس من الأسر، واعتذر منه لقتل والده[٦٩].

وبقتل صدقة مؤسّـس الحلّة السـيفيّة انطوت صفحة مجيـدة من صفحات المقاومة العربيّة للتسلط الأجنبي بشكلٍ عام، والتسلّط السلجوقي بشكلٍ خاص.

هوامش البحث ومصادره

(١) للمزيد من التفاصيل، يُنظر: الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي، القاموس المحيط، بيروت، د.ت، عبد الرضا الحميري، لمحات من تاريخ الحلّة، النجف، ٢٠١٢، ص٩.

(٢) رؤوف الأنصاري، الحلّة الفيحاء العاصمة السياسيّة للعراق، ذات تاريخ عريق ومعالم إسلاميّة بارزة، مجلّة أوراق تراثيّة، العدد الثالث، ٢٠١٢، ص٧١.

(٣) ماجد عبد زيد، الحياة الفكريّة في الحلّة في القرنين السابع والثامن الهجريين، ٦٠١-٨٠٠هـ، أطروحة دكتوراه، الجامعة المستنصريّة، كليّة التربيّة، ٢٠٠٥، ص٧.

(٤) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله، معجم البلدان، ط٢، بيروت، ١٩٩٥، ص٢١٨-ص٢٢٢.

(٥) للمزيد يُنظر: جون اوستي، بابل تاريخ مصور، ترجمة: سمير عبد الرحيم الجلبي، بغداد، ١٩٩٠.

(٦) يوسف كركوش، تاريخ الحلّة، القسم الأول، في الحياة السياسية، النجف، ١٩٦٥، ص٣.

(٧) المصدر نفسه، ص١٥.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) يوسف كركوش، المصدر السابق، ص٣.

(١٠) المصدر نفسه، ص٤.

(١١) للمزيد من التفاصيل، يُنظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق.

(١٢) للمزيد من التفاصيل عن كوثا ومشروع المسيب الكبير، يُنظر: كريم مطر الزبيدي ويحيى كاظم المعموري، كوثا ماضيها وحاضرها، تاريخ جبلة حتى عام ٢٠١٠، جامعة بابل، مركز الدراسات الحضارية والتاريخية، ٢٠١١.

(١٣) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٢، ص٣٢٢.

(١٤) عبد الرضا عوض، الحلّة وحكّامها الأمراء، الصدور، القائمقامون، المتصرفون، المحافظون منذ تأسيسها عام ٤٩٥هـ حتى عام ١٤٣٢هـ/ ١١٠١-٢٠١١م، الحلّة، ٢٠١١، ص٩.

(١٥) هادي محمد كمال الدين، فقهاء الفيحاء، ج١، بغداد، ١٩٦٢، ص٢٣.

(١٦) المصدر نفسه، ص٢٣، ٧٢، عبد الرضا عوض، شعراء الحلّة السيفية أيام الإدارة المزيدية

وما بعدها، ط٢، الحلّة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٧م، ص٣٠.

(١٧) للمزيد من التفاصيل، يُنظر: حسن عبد الرحمن حسون الباوي، مرقد الإمام عمران بن علي بن أبي طالب عليه السلام وقرية الجمجمة، نظرات في التاريخ والتراث الشعبي، الحلّة، ٢٠١٢.

(١٨) للمزيد من التفاصيل، يُنظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط٢، بيروت، ١٩٦٧.

(١٩) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص٩٣.

(٢٠) عبد الجبار ناجي، دراسات في المدن العربية الإسلاميّة، لبنان، ٢٠٠١، ص٢٠٢.

(٢١) يوسف كركوش، المصدر السابق، ص١٤٠.

(٢٢) كركوش، المصدر نفسه، ص١٥.

(٢٣) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمّد بن علي، المنظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد، ١٣٥٨هـ، ص٢٣.

(٢٤) المصدر نفسه، ص٢٤.

(٢٥) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٩، ص٢١١.

(٢٦) للمزيد من التفاصيل، يُنظر: عامر عجاج، النيل ومنطقتها دراسة في الأحوال الجغرافية والسياسية والفكرية في القرن السابع الهجري، رسالة ماجستير، جامعة بابل، كلية التربية، ٢٠٠٤.

(٢٧) الدنيوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، الأخبار الطوال، ليدن، ١٩١٢، ص٧٥.

(٢٨) البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، ليدن، ١٩٦٦، ص٩٨.

(٢٩) الطبري، أبو جعفر محمّد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ليدن، ١٨٧٩، ج٣، ص٤١٢.

(٣٠) سرور محمّد جمال، سياسة الفاطميين الخارجيّة، بيروت، ١٩٦٧، ص٧٣، عامر عجاج، المصدر السابق، ص٧٨.

(٣١) ابن الجوزي، المصدر السابق، ص٢٨٩، ابن خلدون، المصدر السابق ج٤، ص٢٧٧، عامر عجاج، المصدر السابق، ص٧٧.

(٣٢) يوسف كركوش، المصدر السابق، ص١٦.

(٣٣) عامر عجاج، المصدر السابق، ص٨٨.

(٣٤) المصدر نفسه، ص٨٩- ٩٨.

(٣٥) يوسف كركوش، المصدر السابق، ص١٨.

(٣٦) جواد أحمد علوش، محمد السنيسي شاعر بني مزيد، مجلّة الأستاذ، العدد ١١، ١٩٦٢-١٩٦٣، ص١١، عامر عجاج، المصدر السابق، ص٨٨.

(٣٧) ابن الاثير، المصدر السابق، ج١٠، ص١٥٠. يوسف كركوش، المصدر السابق، ص١٩.
(٣٨) يوسف كركوش، المصدر السابق، ص١٩.
(٣٩) عبد الجبار ناجي، الإمارة المزيدية في الحلّة، دراسة في موقعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، البصرة، ١٩٧٠، ص٩٦.
(٤٠) للمزيد من المعلومات، يُنظر: حسين أمين، تاريخ العراق في العصر السلجوقي، بغداد، ١٩٦٥.
(٤١) ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٠، ص٦٨.
(٤٢) عبد الجبار الأسدي، الإمارة المزيدية في الحلّة، ص٩٨.
(٤٣) المصدر نفسه.
(٤٤) ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٩، ص٣٠، ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣، ص١٣١.
(٤٥) ابن الاثير، المصدر السابق، ج١٠، ص٦٨.
(٤٦) ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٩، ص٤٨.
(٤٧) عبد الجبار ناجي، المصدر السابق، ص١٠٢.
(٤٨) ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٩، ص٨٤.
(٤٩) عبد الجبار ناجي، الامارة المزيدية في الحلّة، ص١٠٦.
(٥٠) يوسف كركوش، المصدر السابق، ص١٩.
(٥١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، بيروت، ١٩٥٨، ص١٨٩.
(٥٢) عبد الجبار ناجي، الامارة المزيدية في الحلّة، ص١٠٦.
(٥٣) ابن الأثير، المصدر السابق، ج١٠، ص١٣٣.
(٥٤) ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة بن علي بن محمّد التميمي الدمشقي، ذيل تاريخ (دمشق، بيروت) ١٩٠٨، ص١٥٩.
(٥٥) عبد الجبار ناجي، الإمارة المزيدية، ص١١٠.
(٥٦) ابن الاثير، المصدر السابق، ج١٠، ص١٣٤.
(٥٧) عبد الجبار ناجي، ص١١٥.
(٥٨) يوسف كركوش. المصدر السابق، ص٢٥.
(٥٩) عبد الجبار ناجي، الإمارة المزيدية، ص١١٨.
(٦٠) المصدر نفسه.
(٦١) ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٩، ص١٣١.
(٦٢) ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٩، ص١٣-١٣٢.

(٦٣) أبـو البقـاء، المناقب المزيديّة، ورقـة رقم ١٥٢، نقلًا عـن: عبد الجبار ناجي، الإمـارة المزيديّة، ص١١٩.

(٦٤) المصدر نفسه، ص١٢١.

(٦٥) ابـن خلـكان، وفيـات الأعيان وأنبـاء الزمان، تحقيـق: محي الديـن عبد الحميـد، ج٤، مصر، ١٣٤٢هـ، ص٨٠-٨١.

(٦٦) عبد الجبار ناجي، الإمارة المزيديّة، ص١٢٥.

(٦٧) يوسف كركوش، المصدر السابق، ص٣٠.

(٦٨) المصدر نفسه.

(٦٩) المصدر نفسه.